

صَلَّى  
وَسَلَّمَ  
عَلَيْهِ

مَحْصِلُ

المثل الأعلى

عَرَبِيَّة  
مَحْمَد السَّابِغِي

ي  
ن



نشر: مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - ت: ٨٦٨-٣٩٠٠



مُحَمَّدٌ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

المثل الأعلى

للمؤرخ إدوينجلىزى

توماس كارليل

عربه

محمد السباعى

مكتبة الآداب

٤٢ ميلان الأوبرا - القاهرة

٣٩١٩٢٧٧ - ٣٩٠٠٨٦٨٠

رقم الإيداع ٥٣٢٢ / ١٩٩١

التقديم الدولي I.S.B.N. 977-241-033-8

ذو الحجة ١٤١٣ هـ - مايو ١٩٩٣ م

حقوق الطبع محفوظة لمكتبة الآداب ( علي حسن )

## فهرست الكتاب

- ٦ \* كلمة الناشر .....
- ٨ \* ترجمة المؤلف - وترجمة المترجم .....
- ١٠ من أكبر العار القول إن محمداً كذاب .....
- ١١ قلوب خبيثة .....
- ١٢ قوانین الطبيعة - الرجل الكبير - إخلاصه .....
- ١٤ كلمات الرجل العظيم .....
- ١٥ هفوات الرجل العظيم .....
- ١٦ العرب وصفة جذيرة العرب .....
- ١٨ التدين في العرب - سفر أيوب كتب في بلاد العرب ...
- ١٩ الحجرة السوداء والسكينة .....
- ٢٠ بشر زهرم - السكينة .....
- ٢٢ مولد محمد ونشأته .....
- ٢٣ سفره للشام والتقاءه بالراهب بحيرا .....
- ٢٤ أمية محمد .....
- ٢٥ صديق محمد منذ طفولته - الابتسام الصادق والكاذب ...
- ٢٦ هيئته الحادثة وزواجه بخديجة .....

- محمد برىء من الطمع الدنيوى وعطاس ونافذ البصيرة . . . ٢٧
- الرجل العظيم ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن . . . . . ٢٩
- اخلاء محمد بنفسه واهتزاله الناس في رمضان . . . . . ٣٠
- ابتداء البعثة . . . . . ٣٠
- حقيقة الإسلام وكلمة جوته فيه — كلنا مسادون . . . . . ٣١
- الوحى وجبريل . . . . . ٣٢
- معنى كلمة محمد رسول الله . . . . . ٣٣
- فضل السيدة خديجة وعلى وزيد بن حارثة . . . . . ٣٣
- الدعوة إلى الإسلام — سرودة على ونجداته . . . . . ٣٤
- استبأ قريش من عمل محمد . . . . . ٣٥
- فصيحة أبي طالب وعزيمة محمد — احتماله الشدائد . . . . . ٣٦
- تألب قريش على محمد ليقتلوه — هجرته إلى المدينة . . . ٣٧
- الرد على القائلين بأن الإسلام انتشر بالسيف . . . . . ٣٨
- لا يصح إلا الصحيح — عدل الطبيعة . . . . . ٣٩
- قضاء محمد على وثنية العرب والعقائد الفاشية في ملك الأيام ٤١
- القرآن وإعجازه . . . . . ٤٢
- الإخلاص من فضائل القرآن . . . . . ٤٣
- الإخلاص منشأ الفضائل . . . . . ٤٤
- القرآن محل أسرار الأمور — المعجرات في نظر الإسلام ٤٥
- الرد على منتهى الإسلام بالشهوة . . . . . ٤٧

٤٨	برادة محمد من الشهوات وتواضعه وتشفه
٤٩	مكرمات محمد وأخلاقه
٥٠	برادة محمد من الرياء والتصنع
٥١	ما كان محمد يعايش
٥٢	المساواة بين الفاس — الزكاة — الجنة والنار
٥٣	الصيام في الإسلام
٥٤	منزلة الإسلام في قلوب المسلمين
٥٥	تأثير الإسلام على العرب وفضلهم عليهم

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## كلمة الناشر

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ،  
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .  
أما بعد .. فإن المسلم وظيفته الحقيقية إقامة الحق ومقاومة الباطل .  
ولإقامة الحق لها أوجه متعددة ، كما أن مقاومة الباطل لها أيضا  
أوجه متعددة .

وبين أيدينا هنا رسالة أراد صاحبها - وهو نصراني من أبرز  
شخصيات القرن التاسع عشر - وأعظم فلاسفة الإنجليز قاطبة ،  
أن "يحق" بها سقاً ويبطل باطلا . فلقد هاله ما تعرضت له شخصية  
الرسول ﷺ من تحن وظلم ، فبحث وتقصى حتى أدرك جوانب  
العظمة ومواطن التقدير والإبهار في ذلك الذي « أدبه ربه فأحسن  
تأديبه » ، ففرض لها في موضوعية وحيدة جديران بالتقدير .  
واقدر شجعنا ما وجدناه في هذه الرسالة من إنصاف ونزاهة مقصد  
إلى إعادة نشرها عن ترجمة المغفور له الأديب محمد السباعي .  
ولكن لغتنا أمانة الطابع ، أن المؤلف ، وإن كنا لا نبخسه حقه



من الشناعة على روعة فكره وصفاء ذهنه وروحته وشجاعته وصدق مقصده . قد وقع في بعض الأخطاء في تقييم الحقيقة الإسلامية ؛ إذ نزع في بعض فهمه إلى ما أشاعه بعض المستشرقين ومؤرخي الغرب المخرضين منه دس لبعض الأباطيل والآكاذيب التاريخية ، لذا فإنه وإن أدرك بعض جوانب عظمة الإسلام ، فقد غابت عنه جوانب أعظم . لو علمها لكان بها مستناه فيه من روح الإنصاف وإحقاق الحق من كبار دعاة المسلمين .

ولقد رأينا عند إعادة نشر هذه الرسالة عن ترجمة الأديب محمد السباعي أن نظمها كما هي دون إضافة أو حذف أى حرف من النص الأصلي ، ولكن واجبنا مقتضينا أن نعلق في الهامش على ما يستوجب تصحيح المفاهيم ، وإعادة الحق إلى نصابه ، وهداية الإنساقية إلى الحقيقة الخاتمة عنها ألا وهي كلمة التوحيد .  
والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

مكتبة الآداب

ذو الحجة ١٤١٣ هـ

مايو ١٩٩٣ م

## المؤلف

توماس كارليل: ١٧٩٥ - ١٨٨١

فيلسوف ومؤرخ وأديب إنجليزي . من أبرز شخصيات القرن التاسع عشر . تآثر بجهوده وشيأه وترجم بعض أعماله . انتقد المجتمع الإنجليزي في أول أعماله « سارتور رزارتوس » ، ١٨٢٤ .

ولقد آثر كارليل بأهمية ودور البطولات والشخصيات القيادية في صناعة التاريخ ولإصلاح المجتمع ، وكتب في ذلك كتابه « الأبطال والبطولة » ، والبطولة في التاريخ سنة ١٨٤١ . وكان كارليل من أبرز شخصيات عصره وتأثر به الكثيرون من أمثال جون رسكين وماتيو آرنولد .

## المترجم

محمد السباعي :

محمد بن محمد بن عبد الوهاب السباعي ، منتهى بليغ ، من كبار المترجمين عن الإنجليزية بمصر . وولده وفاته بالقاهرة ١٢٩٨ - ١٣٥٠ هـ ١٨٨١ - ١٩٣١ م ترجم « الأبطال توماس كارليل T. Carlyle وقصة مدينتين » ، لندكنز ( طبع )

و « بلاغة الإنجليز » ثلاثة أجزاء ( طبع ) ويسمى مختارات لوين ، و « الزينية » ( طبع ) اسنمر . ورسائل لاديسون . ومقالة ماكولي جوداف لاديسون أيضاً ( طبع ) . والسنمر والهور كلاهما مقالات ، ومذكرات ( طبع ) . وأبطال مصر في السياسة المصرية وبعض رجالها . وبعده وفاته جمع ابنه يوسف السباعي ( الأديب والناقد القاهري توفى ١٩٧٨ ) مائة قصة مما كتبه والده صاحب الترجمة أو نقله عن الإنجليزية وأشرفها في ٤ مجلد واحد سنة ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م

# البطل<sup>(١)</sup> في صورة رسول

محمد بن عبد الله

ننتقل الآن من تلك المصور الحشقة - مصور الوثنية الضعيفة - إلى دين آخر في أمة أخرى - دين الإلهام في أمة العرب - وما هي إلا نقلة بعيدة ويون شامع ، بل أي رفعة وارتقاء نراه هنا في أحوال العالم العامة وأفكاره .

في هذا الطور الجديد ، لم ير الناس في بطلمهم إلهاء ، بل رسولا يوحى من الإله ، وهذه هي الصورة الثانية للبطل ، فأما الأولى وأقدم الجميع فقد ذهبت إلى حيث لا تعود أبداً ، وإن ترى الناس يؤطون البطل مهما عظم ، بل لنا أن نسأل أكان من أي ناس قط ، أنهم عبدوا إلى رجل يرونه ويلبسونه ، فقالوا هذا خالق السكون ؟ أنا لا أظن ذلك ، إنما يقولون هذا القول في رجل يتذكرونه ، أو كانوا رأوه ، هل أن هذا أيضا أن يكون قط ، وإن يؤلفه البطل من ثم فصاعداً ، ولو بلغ منتهى العظمة .

لقد كان اعتبار الرجل العظيم إلهاء غاطلة وحشية فاحشة ، ولكن فلنقل إن الرجل العظيم ما برح في جميع الأزمان لغزاً من الألغاز ،

---

(١) الرسالة والنجوة عقدنا - معشر المساهمين - أمر غير مكتمل بل هي وحى إلهي وهبة من الله . لذلك ليس لنا أن نستعمل - كمساهمين - هذه الألفاظ وإن استعملها المستشرق لأنها على قدر فهمه .

لا ندرى كيف نفهمه ، ولا كيف نستقبله ونعامله ! ولعل أهم مزايا  
جيل من الأجيال ، هي كيفية استقباله لرجله العظيم ، وسواء استقبلوه  
كإله أو كشيء ، أو كيفما كان ، فذلك هو السؤال الأكبر ، ومن طريق  
إجاباتهم عن هذا السؤال وكيفية مذهبهم في ذلك الأمر ، يمكننا أن  
نبحر صميم حالتهم الروحية كما لو كان من خلال نافذة .

فإن الرجل العظيم إذا كان مصدره واحداً - أعني من ذات الله ،  
فهو هندس واحد : « أودين ، أو دلوثر ، أو جونسون ، أو بارنز ،  
وأرجو أن أوفق إلى إقناعكم أن جميع هؤلاء من طينة واحدة ، وأنه  
لم يحدث الخلاف العظيم بين أحدهم والآخر ، إلا الهيئة التي يكتسبونها  
هم ، أو الطريقة التي يستقبلها بها أهل زمنهم .

من أكبر العار القول إن محمداً كذاب :

لقد أصبح من أكبر العار ، على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر  
أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع  
مروء ، وأن لما أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المنجولة  
فإن الرسالة التي أدامها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر  
قرناً لتقوم ما يقرب من الناس (١) أمثالنا ، خلقهم الله الذي خلقنا ،  
أفكان أسعدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها ، وماتت عليها هذه  
الملايين الفاتكة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع  
أن أرى هذا الرأي أبداً ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله

---

(١) الآن أكثر من ألف مليون نسمة .

هذا الرواج ، ويصادفان مفهوم مثل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا به ومجانين ، وما الحياة إلا سخف وعيب وأضلالة ، كان الأولى بها أن لا تخلق .

فوا أسفاه ما أسوأ هذا الزعم ، وما أضعف أهله وأحقهم بالرائة والمرحمة .

### قلوب خبيثة :

وبعد ، فعلى من أراد أن يبالغ منزلة ما في علوم الكائنات أن لا يصدق شيئاً البتة من أقوال أولئك السفهاء ، فإنها نتائج جيل كفر ، وعصر جهود وإلحاد ، وهى دليل على خبث القلوب ، وفساد الضمائر ، وموت الأرواح في حياة الأبدان ، وأمل العالم لم يرق قط رأياً أكفر من هذا والام .

الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتاً من الطوب .

فكيف يوجد ديناً (١) ؟

وهل رأيتم قط معشر الإخوان أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً ويلبسه ، دجياً والله ، إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتاً من الطوب ! فهو إذا لم يكن علماً بخصائص الجهد والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذى يبنيه بيت ، وإنما هو تل من الانقاض ، وكثيب من أخلاط المواد ، نعم ، وليس جديراً أن يبنى على دعائمه اثني عشر قرناً ، يسكنه مائتا مليون من الأنفس ، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم كأنه لم يكن .

---

(١) الرسول ﷺ لم يوجد الدين ، وإنما هو مبلغ لهذا الدين .

### قوانين الطبيعة :

والتي لأعلم أنه على المرء أن يسير في جميع أمره طبقاً لقوانين الطبيعة ، وإلا أبت أن نجيب طلبته وتعطيه بغيته ، وكذب والله ما يذيعه أولئك الكفار ، وإن زخرفوه حتى خيلوه حقا ، وزور وباطل وإن زينه حتى أومعوه صدقاً ، وسنداً والله ، ومصاب أن يخذل الناس شعوباً وأممًا بهذه الأضاليل ، وتسود السكينة وتقود بها نيك الأباطيل ، وإنما هو كما ذكرت لكم من فيل الأوراق المسالية المزورة يحتمل لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الإثيمة ، ويحقيق مصابها بالغير لآبه ، وأى مصاب وأبيكم ؟ مصاب كهـاب الثورة الفرنسية وأشباهاها من الفتن والحق ، تصيح بملء أفواهها وهذه الأوراق كاذبة !

### الرجل الكبير :

أما الرجل الكبير خاصة ، فإني أقول عنه يقيناً إنه من المحال أن يكون كاذباً ، فإني أرى الصدق أساسه وأساس كل ما به من فضل وهمة ، وعندى أنه ما كان رجل كبير - ميرابو ، أو نابليون ، أو بارنز ، أو كرمويل - كفوا للقيام بعمل ما إلا وكان المصدق والإخلاص وحسب الخبر أول باعثاته على محاولة ما يحاول ، أعنى أنه رجل صادق النية جاد مخلص قبل كل شيء .

### الإخلاص الرجل الكبير :

بل أقول إن الإخلاص — الإخلاص الحر العميق الكبير — هو

أول خواص الرجل العظيم كيفما كان ، لا أريد إخلاص ذلك الرجل الذي لا يبرح يشتغل على الناس بإخلاصه ، كلا فإن هذا حقير جداً وأيم الله — هذا إخلاص سطحى وقبح — وموقوف الغالب ضرور وفنية إنما إخلاص الرجل الكبير هو عما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه كلا ولا يشعر به ، بل لا يحسب أنه ربما شعر من نفسه بعدم الإخلاص ، إذ أين ذلك الذى يستطيع أن يازم منهج الحق يوماً واحداً ؟ نعم ، إن للرجل الكبير لا يشتغل بإخلاصه قط ، بل هو لا يسأل نفسه أهى عفاصة ، أو بهيمة أخرى أقول إن إخلاصه غير متوقف على إرادته ، فهو مخلص على الرغم من نفسه ، سواء أراد أم لم يرد ، هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله — حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالها الباعر مهما حاول ، هكذا خلن الله ذهنه ، وخانة ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمته ، هو يرى الكون مدهناً وعظيماً وحقاً كالموت ، وحقاً كالحياة . وهذه الحقيقة لا تفارقه أبداً ، وإن فارقت منظم الناس فساروا على غير هدى ، وخبطوا في غياهب الضلال والعمالة ، بل تفلت هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونسب عينيه كأنها مكتوبة بحروف من الذهب ، لا شك فيها ولا ريب ، ها هى ! ها هى — فاعرفوا هذا كم الله أن هذه هى أولى صفات العظيم ، وهذا حله الجوهرى وتربيته ، وقد توجد هذه فى الرجل الصغير ، فهى جديرة أن توجد فى نفس كل إنسان خلن الله ، واسكنها من لوازم الرجل العظيم ، ولا يكون الرجل عظيماً إلا بها .

مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلاً أصلياً صافى الجهر كريم العنصر

فهم رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة إلينا ، فقد نسجيه  
شاعراً أو نبياً أو إلهاً (١) ، وسواء هذا أو ذاك ، فقد نعلم أن قوله ليس  
بمأخوذ من رجل غيره ، ولكنه صادر من لباب حقائق الأشياء ، نعم  
هو يرى باطن كل شيء ، لا يحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب  
الاهتبارات والعادات والمعتقدات ، وسنخيف الأوهام والآراء ،  
وكيف وأن الحقيقة التسطع لعينه حتى يكاد يعشى لنورها .

### كلمات الرجل العظيم :

ثم إذا نظرت إلى كلمات العظيم ، شاعر أو فيلسوف أو نبياً  
أو فارساً أو ملكاً ، ألا تراها ضرباً من الوحي (٢) أو الرجل العظيم في  
نظريته مخلوق من مواد الدنيا وأشياء الكون ، فهو جزء من الحقائق  
الجوهرية للأشياء وقد دلّ الله على وجوده بعدة آيات ، أرى أن  
أحدثها وأجدها هو الرجل العظيم الذي عليه الله العلم والحكمة ، فوجب  
عليها أن نصغي إليه قبل كل شيء .

وهل ذلك فلسفة نعدّها عمداً هذا قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتدّرج  
بالحيل والوسائل إلى بغية ، أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان ، أو  
غير ذلك من الحقائق والصفائر ، وما الرسالة التي أداها إلّا حق  
صراح ، وما كلمته إلّا صوت صادق صادر من العالم المجهول (٣) ، كلا ما محمد

(١) هذا من الخاطى الذي لا يسيغه المسلم .

(٢) الوحي الإلهي لا يكون إلّا للأنبياء وعن طريق الملائكة  
وليس ككلام الشعراء أو الفلاسفة .

(٣) هذا على حدّ فهمه ، أما عندنا فهم مرسل من الله تعالى لا من  
العالم المجهول .



بالكاذب ولا الملق ولئلا هو قلعة من الحياة قد تنظر عنها قلب  
الطبيعية فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله ، وذلك  
فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، وهذه حقيقة تدمغ  
كل باطل وتدحض سمجة القوم الكافرين .

### هنوات الرجل العظيم :

وهب لحمد ( عليه السلام ) مناقات وهنوات — وأى إنسان  
لا يتعلم إلا بما تعلمه الله ورسوله — فإنه ليس له طاقة أية هنوات أو غلطات  
أن تورى بذلك الحنية الكبرى ، وهي أنه رجل صادق ونبي مرسل .  
وأرانا على العموم نجسم الهنوات ونجمل من الجزئيات سمجاً قسراً  
هنا الملتقى الكلية — الهنوات ؟ أي حسب القياس أنه يخلو منها إنساناً ؟  
إن أكبر الهنوات عندى أن يحسب المرء أنه يرى من الهنوات ،  
ما بال الناس لا يذكرون نبي الله تبارك ؟ ألم ير مكب داود أغلغ  
الجرائم وأشنع الآثام (١) ؟ ألا ما أهين أسر الذنوب وأصغر خطر  
الانغلاط — الجزئيات والقشور — إذا كان إهابها كريماً وسرها حراً  
شريفاً ، وكان في التوبة النصوح ، والندم الصادق ، وخرج الضمير ،  
ولذع المذاكرة ، أكبر مكفر للسيئات ، ومطهر لأردان الروح من أدران  
الشوائب ، أليست التوبة أكرم أعمال المرء قاطبة وأقدس أفعاله ؟  
لئلا الأم الذنوب هو كما قالت حسيان المرء أنه يرى من كل ذنب ، وكل  
ففس هذا شأنها ، فهي في نظري مطلقة من الوطاء والمرودة ، بعيدة  
عن النقي والبر والحق — أو هي ميتة ، أو لن نشأ فقل هي نقيّة نقاء  
(١) هذا القول من أكاذيب اليهود وأضاليهم التي أشاعوها  
بين الناس .

الزمل الجاف الميت ، وإنى أحسب أن سيرة داود وتاريخه كما هو مدون في مواهبه (١) ، لأصدق آية على ارتفاع المرد في معارج المكرمات ، وعلى حرمة العقل والهووى — حرباً طالما ينزوم فيها العقل هزيمة تضعه موضع جانيبه ، وتتركه لى (٢) مشفياً (٣) على الانقراض ، وتسكنها حرب يفيد نهاية مشفوعة أبداً بالبكاء والتوبة واستنهاض العزم الصادق ، الذى لا يرجع يتجدد بعد كل هزيمة .

يا ويل النفس الإنسانية ما أشد خذلانها بين ضعفها وقوة شمواتها ، أو ليسى حياة الإنسان في هذه الدنيا سلسلة عثرات ؟ وهل في استطلاعة المرد خلاف ذلك ؟ وهل يطبق في ظلمات هذه الحياة إلا الاعتساف والتخبط ؟ فما ينهض من هثرة إلا لاخرى ، وبين هذه وتلك نجيب وعبرات وشبهق وذفرات ، ولما الأمر المهم هو : أياظربمواه بعد كل هذه المجاهدات ؟ ولما للصفح عن كثير من الجزئيات ما دام الباب حقاً ، والسجين صحيحاً ، وما كانت الجزئيات وحدها لتعزفنا حقيقة إنسان (٤) .

#### العرب وصفة جزيرة العرب :

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة ، تسكن بلاداً كريمة ، وكأما خالق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق ، فكان تمتع شبه قريب بين وعورة جبالها وعورة أخلاقهم ، وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم ، وكان يلائف من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والدمائة ، كما كان يبدط من عبوس وجوه البلاد ، رياض شخصراء وقيمان ذات أمواه وكلاء ،

(١) سبق القول أن هذا افتراء لا يهتم عليه .

(٢) ملق . (٣) مقارب . (٤) هذا الكلام لا ينطبق على الأنبياء .

وكان الأعرابي ضامتا لا يتكلم إلا فيما يعنيه ، إذ كان يسكن أرضا  
قفراً يبابا خرساء ، تتخللها بحراً من الرمل يصطلي بحمرة النهار طوله ،  
يريكافح بحراً وجهه نفحات القرّ ليله .

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت

فيمضي ، وأما بالعشى فينحصر

ولا أحسب أناساً شأنهم إلا نفراد وسط البعيد والقفار ، يهادثون  
ظواهر الطبيعة ، ويناجون أسرارها إلا أنهم يكونون أذكاء القلوب ،  
حداد الخواطر ، خفاف الحركة ثاقبي النظر ، وإذا صبح أن الفرس  
هم فرنسيوا المشرق ، فالعرب لا شك طليانته ، والحق أقول لقد كان  
أولئك العرب قوماً أقوىاء النفوس ، كأن أخلاقهم سيول دفاقة ، لها  
من شدة حميمهم وقوة إرادتهم أحصن سور وأمنع حاجز ، وهذه  
وأبيكم أم البناتل ، وذروة الشرف الباذخ ، وقد كانوا أحدهم يضيقه ألد  
أعدائه فيكرم مشواه وينحدر له ؛ فإذا أزمع الرحيل خلع عليه وحمله  
وشيعه ، ثم هو بعد كل ذلك لا يحجم عن أن يقاتله متى عادت به إليه  
الفرص ، وكان العربي أغاب وقته صامناً ، فإذا قال أفصبح .

ويزعمون أن العرب من عنصر اليهود ، والحقيقة أنهم شاركوا  
اليهود في مرارة الجدة ، وخالقوهم في حلاوة الشمالك ، ورقة الظرف .  
وفي المعية الفريجة ، وأريحية السلب ، وكان لهم قبل زمن محمد ( عليه  
السلام ) منافسات في الشعر ، يمحرونها بسوق عكاظ في جنوب البلاد ،  
حيث كانت تقام أسواق التجارة ، فإذا انتهت الأسواق تهاشد الشعراء  
القصائد ، ابتغاء جائزة تحمل للأجود قريناً ، والأحكم قافية ، فكان  
الأعرابي الجفاة ذوو الطباع الوعة ، يرتاحون للغات التمهيد ،

ويجدون أرناتما أية لذة فيهما فتون على المنشد كالفراش ، ويتهاكون  
التدين في العرب :

وأرى طوقه العرب صفة من دقات الأسرار الثابتين واضحة فيهم .  
وأحسبها ثمرة الفضايل جميعها والمحامد بهذا نيرها إلا وهو التدين ، فإنهم  
كانوا ، ما برحوا شدة يدى التمسك بدينهم كيفما كان ، كانوا  
يعبدون السكواكب وكثيراً من الكائنات الطبيعية ، يرونها مظاهر  
للخالق ودلائل على عظمته ، فهم إذ وإن يك خطأ فلاس من جميع  
وجوده ، فإنهم ذوات الله ما برحت وجهه ما رزأ له ودلائل عليه ،  
ألسنا كما قد علمت نعتهم من مظهره للشاعر وفقيهه ، أن يكون يدرك  
ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال أو أسرار الجمال الشعري ،  
كما اصطليح الناس على تسميته ؟ وقد كان طوقاء العرب عدة أنبياء كلهم  
أستار قبيلته ومرشداً لها حسب ما يقتضيه ، يبالغ عليه ورأي (١) ، ثم أليس  
لدينا من البراهين الباطنة ، ما يثبت لنا أى حكمة بليغة ورأي مسدد ،  
وأى تقوى وإخلاص قد يكون طوقاء البدو المفكرين ؟

سفر أيوب كتب في بلاد العرب :

وقد اتفق النقاد أن سفر أيوب ، أحد أجزاء التوراة كتابنا  
المتقدس قد كتب في بلاد العرب . ورأي في هذا الكتاب فضلاً عن  
كل ما كتب عنه أنه من أشرف ما سطر يراع ودونت يد كاتب (٢) ،  
ولا يكاد المرء يصدق أنه من آثار العبرانيين ، لما فيه من عمومية

(١) هذا خلل بين النبوة وبين زعامة القبيلة .

(٢) هذا اعتراف منه بأن التوراة مكتوبة لا منزلة .

الأفكار مع شرفها ومجدها — غورية الخراف الزمجب والتعيز ،  
وحسب الكتاب شرفاً أن يكون يضرب برق في كل نفس ، ويمت  
بصلة إلى كل قلب ، ويكون كالبيت ينضى إليه منتهى السبل ، وكالأرج  
الضائع (١) تتنازع ، جميع الأنوف ، والكتاب المذكور هو أول ما جاءنا  
عن مسألة المسائل : حياة الإنسان وفل الله به في هذه الدار ، وقد  
أنا بذلك في أنصح بيان ، وأشد إخلص ، وأحسن سهولة .

وإني لأتبع فيه العين البعيدة ، والقلب النافذ الفهم ، الحزم  
الخشوع ، فهو الحق من حيث جهته ، والنظر الراسب في قرارة كل شيء  
وصميم كل أمر — مادي روحاني ، ألا تذكر ما جاء فيه من ذكر  
الفرس : والله الذي أودع الرعدة حنجرته (٢) ، وفل ترى صديقه لإلتهمة  
لرقية الرياح ، هذا والله أجد الامتداحة ، وما أحسب أن في عالم  
التهشيب كل ما يماثل ذلك أو يقاربه ، ذلك في الكتاب المذكور من  
آيات الحزن الشريف ، والكل الحسن الجميل ، وما قرأت فيه قط  
إلا حسبت فيه قلب الإنسانية يرتجف ويرجأ ، ودمع الإنسانية  
يفيض حرقاً وكداً ، فيا لها من رقة في شدة ، ورأفة في قوة ، وما  
أشبهها إلا بسحر الليالي العائمة رقة نسيم في جلال مشهد عظيم ، وإلا  
بالكون وكل ما فيه من أنجم وبحار وليل ونهار ، وما أحسب أن في  
جميع النوراة شيئاً يدانيه فضلاً وقيمة .

#### الحجر الأسود والسكبة :

والحجر الأسود كان من أهم معبودات العرب ، ولا يزال الآن

(١) ضاع المسك إذا انتشرت رائحته بقوة .

(٢) أى أودع في حنجرة الفرس قوة الرعدة .

بمكة في البقاء المسمى «الكعبة» . وقد ذكر المؤرخ الروماني «سيسلاس» الكعبة فقال : إنها كانت في مدته أشرف معابد العالم طراً وأقدمها ، وذلك قبل الميلاد بنحو مائتين عاماً ، وقال المؤرخ «ساردي ساسي» إن الحجر الأسود ربما كان من رجوم السموات ، فإذا صح ذلك (١) فلا بد أن إنا قد بهر به ساطع من الجوا ، والحجر موجود الآن الى جانب البيت زهزم ، والكعبة مبنية فوقها .

### بئر زهزم :

والبيت كما تهلون منظر حبيبا كان سار مفرح ، ينبس الماء من الحجر الأصم ، كالحياة من الموت ، ثا بالسك بها إذا كانت تفيض .  
ولقد اشتق لها اسمها «زهزم» من صوت تنجسها وهديرها ،  
والعرب يزعم أنها انبجس من تحت أقدام هاجر وإسماعيل فيضاً من الله  
وشفاء ، وقد قدسها العرب ، والحجر الأسود ، وشادوا عليها الكعبة  
منذ آلاف من السنين .

### الكعبة :

وما أعجب هذه الكعبة وأعجب شأنها ؟ فهي في هذه الآونة قائمة على قواعدها عليها السكوة السوداء التي يسلها السلطان كل عام ، يبلغ ارتفاعها سبعاً وعشرين ذراعاً حولها دائرة مزدوجة من الحديد وبها صفوف من المصابيح وبها نقوش وزخارف جميلة ، وستوقد تلك المصابيح الليلة وتشرق تحيى اليوم المشرقة ، فنعم أثر الماضي

(١) الحجر الأسود من حجارة الجنة كما أخبرنا الرسول ﷺ في صحيح الحديث .

هي ونعم ميراث الغابر ، هذه كعبة المسلمين ، ومن أقاصى المشرق إلى  
أخريات المغرب ، — من دلهى إلى مراکش تتوجه أبصار العديد  
المجمر من عباد الله المصايين شطرها ، وتهفو قلوبهم نحوها ، خمس مرات  
هذا اليوم وكل يوم ، نعم لى والله من أجل مراكر المعمورة وأشرف  
أقطابها .

ومن شرف البئر زهرم ، وقديسية الحجر الأسود ، ومن حجج  
التبائل إلى ذباك المسكن كان منشأ مدينة مكة ، ولقد كانت هذه المدينة  
وقتاً ما ذات بال ورشاً ، وإن كانت الآن قد فقدت كثيراً من أهميتها (١) ،  
وموقعها من حيث هي مدينة سيئ جداً ؛ إذ هي واقعة في بطن من  
الأرض كثير الرمال ، وسط هضاب قفرة ، وللال مجدبة ، على مسافة  
بعيدة من البحر ، يتار لها جميع ذخائرها من جهات أخرى حتى الحزن ،  
ولسكن الذى اضطر إلى إجهاد هذه المدينة هو أن كثيراً من الحجيج  
كانوا يطالبون المأوى ، ثم إن أما كن الحج ما زالت من قديم الزمان  
تسندى التجارة ، فأول يوم يأتى فيه الحجيج تلتقى فيه التجار كذلك  
والباعة ، والناس مقفون وجدوا أنفسهم يجتنبون لغرض من الأغراض ، رأوا  
أنه لا بأس عليهم أن يقضوا كل ما يعرض لهم من المنافع ، وإن لم  
يسكن فى الحسبان ، لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب بأجمعها ،  
والمركز لكل ما كان من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر ، بل  
وبين إيطاليا . وقد بلغ سكانها فى حين من الأحيان مائة ألف نسمة  
بين هائمين ومشتريين وموددين لبضائع الشرق والغرب ، وباعة

---

(١) بل لم تفقد قيمتها فى أفئدة المسلمين .

للساكولات والغلال ، وكانت حكومتها ضرباً من الجمهورية الارستوقراطية ، عليها صبغة دينية ، وذلك أنهم كانوا ينتخبون لها بطريقة غير منظمة ، عشرة رجال من قبيلة عظمى ، فيسكون هؤلاء حكام مكة وحراس السكينة ، وكانت لقريش في عهد محمد ( وأسرة محمد من قبيلة قريش ) وكان سائر الامة مبدداً في أنحاء تلك الرمال ، قبائل تفصل بين الواحدة والأخرى البعيد والنفار ، وعلى كل قبيلة أمير أو أمراء . وبما كان الأمير راعياً أو ناقل أمتعة ، ويكون في الغالب غنياً ١١١ وكانت الحرب لا تنجم بين بعض هذه القبائل وبعضها ، ولم يك يؤلف بينهم سلف على إلا التفاوض بالسكينة ، حيث كان يجمعهم على اختلاف وثباتهم مذهب واحد ورابطة الدم واللغة ، وعلى هذه الطريقة عاش العرب دهوراً خاملة الذكر غامض الشأن - أناساً ذرى مناقب جليلة وصفات كبيرة ، ينتظرون من حيث لا يشعرون ، اليوم الذي يشاد فيسه بذكرهم ويسلر في الآفاق صيقتهم ، ويرتفع إلى عنان السماء صوتهم ، وما ذلك ببعيد ، وكأنما كانت وثباتهم قد وصلت إلى طور الاضمحلال ، وأذنت بالسقوط ، وقد حدثت بينهم دواعي اختلاط وفوران ، وكان قد بلغهم على مدى القرون غوامض أنباء عن أكبر سعادة وقعت على وجه البسيطة - أعني حياة المسيح ووفاته (١) وهي التي أحدثت انقلاباً هائلاً في جميع سكان العالم - فلم تعد هذه الأنباء تأثيرها من الفوران في أحشاء الامة العربية .

#### مولد محمد ونشأته :

وكان بين هؤلاء العرب الذي تلك حالهم ، أن ولد محمد ( عليه

(١) الصحيح دفعه كما أخبرنا القرآن .



السلام) عام ٨٠٥ ميلادية ، وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش ، وقد مات أبوه عقب مولده ، ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه - وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل ، فقام عليه جده وهو شيخ قد ناهز المائة من عمره وكان سالماً هاوياً ، وكان ابنه عبد الله أحب أولاده إليه ، فأبصرت عينه الحرمة في محمد هورة عبد الله ، فأحسب اليتم الصغير بذله عليه ، وكان يقول ينبغي أن يحسن القيام على ذلك الصبي الجميل ، الذي قد فاق سائر الأسرة والقبيلة حسناً وفضلاً ، ولما حضرت الشيخ الوفاء والغلām لم يتجاوز العامين ، عهد به إلى أبي طالب أكبر أعمامه رأس الأسرة بعده ، فرباه عنه - وكان رجلاً عادلاً كما يهدم بذلك كل دليل - على أحسن نظام عربي .

سفره للشام والتقاؤه بالراهب بحيرا :

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه في أسفار تجارية وما أشبهه . وفي الثامنة عشرة من عمره نراه فارساً متاعلاً يتبع عمه في الحروب (١) ، خير أن أم أسفاره وبما كان ذلك الذي حدث قبل هذا التاريخ بهضج مسكين - رسالة إلى شارف الشام ، إذ وجد الفوق نفسه هناك في عالم جديد ازاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جداً في نظره ، أدنى الديانة المسيحية (٢) ، وإلى است أدري ما ذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس بحيرا ، الذي يزعم أن أبا طالب ومحمداً سكنا معه في دار ، ولا ماذا

(١) حرب الفجار ، حرب كانت بين قريش ومن معها من كثانة وقيس عيلان وكان النبي ﷺ في العشرين حين حضر هذه الحرب مع عمومتة . (٢) هذا من العهد الرفيع ؛ فإن النبي ﷺ ذهب مع عمه إلى طائب الذي ذهب للتجارة ، وكان بحيرا على عقيدة أن عيسى رسول الله ، وبشر أبا طالب بأن من معه هو خاتم الرسل .

هساده يتعلمه غلام في هذه السن الصغيرة من أى راهب ما (٩)، فإن محمداً لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشر ، ولم يعرف إلا لغته ، ولا شك أن كثيراً من أحوال الشام ومشاهدها لم يكن في نظره إلا خليطاً مشوشاً ، من أشياء يكرها ولا يفهمها ولكن الغلام كان له عينان ، ذاقبتان ، ولا بد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشؤون ، فأقامت في ثفايا ضميره ولو غير مفهومة ريثما يشجعها له كرم الغدادة ومر العشى ، وتعلم لها يد الزمن يوماً ما ، فتخرج منها آراء وعقائد ، ونظرات نافذات ، فاعمل هذه الرحلات الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير ، وفوائد جمة .

#### أمية محمد :

ثم لا ننسى شيئاً آخر ، وهو أنه لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً ، وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك في بلاد العرب ، ويظهر لي أن الحقيقة هي أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة ، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها ، وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينه ، ويتلقاه بفؤاده ، من هذا السكون العديم النهاية ، وعجيب وأيم الله أمية محمد ، نعم أنه لم يعرف من العالم ، ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبهصره بنفسه ، أو يصل إلى سمعه في ظلمات صحراء العرب ، ولم يضرب ولم يزر به أنه لم يعرف علوم العالم ، لا قديمها ولا حديثها ، لأنه كان بنفسه غنياً عن كل ذلك ، ولم يقنّبس محمد من نور أى لإنسان آخر ، ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يكن في جميع أشباهه من الأنبياء

---

(١) كانت حياته ﷺ وصباه ورحلاته وخبراته وتجاوله تهيمه انلقية الوحي وتربية له ، وليس له في ذلك من معلم إلا الله .

والعقلاء - أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادئة في ظلمات الدهور -  
 من كان بين محمد وبينه أدنى صلة ، وإنما نشأ وعاش وحده في أحشاء  
 الصحراء ، وإنما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره .  
 صدق محمد منذ طفولته :

ولوحظ عليه منذ فئاته (١) أنه كان شاماً مفكراً ، وقد سماه رفقاءه  
 الأيمن - رجل الصدق والوفاء - الصدق في أفعاله وأقواله وأفكاره ،  
 وقد لاحظوا أن ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة ، ولما  
 لا عرف عنه أنه كان كثير الصمت ، يسكت حيث لا موجب للكلام ،  
 فإذا نطق ، فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة ، لا يتناول  
 غرضاً فيتركه إلا وقد أثار شبهته ، وكشف ظلمته ، وأبان حقيقته ،  
 واستثار دفينته ، وهكذا يكون الكلام وإلا فلا ، وقد رأينا طول  
 حياته ، رجلاً راسخ المجد ، صارم المزم ، بعيد الهمة ، كريماً جراً  
 ووفاء تقياً فاضلاً حراً - رجلاً شديد الجهد مخلصاً ، وهو مع ذلك  
 سهل الجانب ، لين المريقة (٢) ، جهم البش (٣) والطلاقة ، حميد العشرة ، حلو  
 الإيناس ، بل ربما مازح وداعب .  
الابتسام الصادق والكاذب :

وكان على العموم قضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق ،  
 لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله -  
 هؤلاء لا يستطيعون أن يبتسموا ، وكان محمد جميل الوجه وضوء الملمة  
 (١) أي فتوته . (٢) لين : يسكون اللان أى يستعمل الرقة .  
 واللين رخم قوته . (٣) أى بشوش .

حسن القامة ، زاهى اللون (١) ، له عينان سوداوان ، تتلألآن ، وإني لأحسب فى جبينه ذلك العرق الذى كان ينفخ ويسودّ فى حال غضبه كالعرق المقوس الوارد فى قصة القفازة الحمراء لوالتر سكوت ، وكان هذا العرق خصيصة فى بنى هاشم ، واسكنه كان أبين فى شمد وأظمر ، نعم لقد كان هذا الرجل ساد الطبع ، نارى المزاج ، واسكنه كان عادلا صادق النية ، كان ذكى اللب ، شهم الفؤاد :

لو ذعياً كأنما بين جنديي ه مصابيح كل ليل بهم  
متملئاً ناراً ونوراً ، رجلاً عظيماً بفطرته ، لم تثقفه مدرسة ، ولا هديّه معلم ، وهو غنى عن ذلك كالشوكه استغنت عن التفتيح ، فأدى عمله فى الحياة وحده فى أعين الصحراء .

#### عيشته الخاصة وزواجه بخديجة :

وما ألت وما أوضح قصته مع خديجة ، وكيف أنه كان أولاً يسافر فى قمارات لها إلى أسواق الشام ، وكيف كان يشج فى ذلك أقوم مناهج الحرم والأمانة ، وكيف جعل شكرها له يزداد ، وحبها يتم ، ولما زوجت منه كانت فى الأربعين ، وكان هو لم يتجاوز الخمسة والشرين وكان لا يزال عليها مسحة من ملاحه ، ولقد عاش مع زوجته هذه على أتم وفاق ، وألفة وصفاء وغبطة ، يخلص لها الحب ويحدها .

وما يظال دعوى المائنين ( أن محمداً لم يكن صادقاً فى رسالته بل كان ملفقاً مزوراً ) أنه قضى عتقوان شبابيه ، وحرارة صباه ، فى تلك

---

(١) كان ﷺ أدهر اللون .

للعيشة المادية المطمئنة ، لم يحاول أنهاء إحداث ضجة ولا دوى ،  
 بما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة ، ولما يك إلا بعد الأربعين  
 أن تحدث برسالة سماوية ، ومن هذا التاريخ تبتدىء حوادثه وشواذه ،  
 حقيقية كانت أو منخلقة (١) ، وفي هذا التاريخ توفيت خديجة ، نعم لقد  
 كان حتى ذلك الوقت يتنعم بالعيش المادي الساكن ، وكان حسبه من  
 الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه ، وجميل ظفونهم به ، ولم يك  
 إلا بعد أن ذهب الشباب ، وأقبل المشيب ، أن فار بصدره ذلك  
 الركان الذي كان هاجعا ، ونار يريد أمراً جليلًا وشأنًا عظيمًا .

محمد يرى من الطمع الديوى :

ويزعم المتعصبون من النصارى والملاحدون أن محمداً لم يكن يريد  
 بقيامه إلا الشهرة الشخصية ، ومنما خراج الجاه والسلطان ، كلاهما الله ،  
 لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن الفجار والقلوات ، المتوقد  
 المقلزين ، المنظم النفس ، المملوء رحمة وخيراً ، وحناً وبراً ، وحكمة  
 وحجى (٢) ، وأربة ونهى — أفسكار غير الطمع الديوى ، ونوايا خلاف  
 طلب السلطة والجاه .

محمد مخلص نافذ البصيرة :

لا يرضى بالاصطلاحات الكاذبة

وكيف وتلك نفس صامتة كهيمة ، ودجل من الذين لا يمكنهم  
 إلا أن يكونوا مخلصين مجدين ، فيبتازى آخرين يرضون بالاصطلاحات

(١) أى سواء حدثت أو اختلقها عليه قریش .

(٢) الحجى : العقل .

الكاذبة، يسرون طبق الاعتبارات الباطلة، إذ ترى محمداً لم يرض أن  
يبتغي بمآلوف الأكاذيب ويتوشح بمتبع الأباطيل، لقد كان منفرداً  
بفكره العظيمة، وبحقائق الأمور والسكائنات، لقد كان سر الوجود  
يسطوع لعينيه كما قلت بأهواله ومخاوفه، وروافقه ومباهره، لم يك  
هناك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه، فكأن لسان حال ذلك السر  
المائل يقاچيه «ها أنا ذا» فثل هذا الإخلاص لا يتخلو من معنى إلهي  
مقدس، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب  
الطبيعة، فإذا تكلم فشكل الأذان برغمها صاغية، وكل القلوب واعية،  
وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل قول جفاء، وما زال منذ الأعوام  
الطوال - منذ أيام رحلاته وأسفاره يحول بظاهره آلاف من الأفكار:  
ماذا أنا؟ وما ذلك الشيء العديم النهاية الذي أعيش فيه، والذي يسميه  
الناس كوناً؟ وما هي الحياة؟ وما هو الموت؟ وماذا أعتقد؟ وماذا  
أفعل؟ فهل أجابته عن ذلك صخور جبل حراء أو شتاتين طود الطور،  
أو تلك القفار والفلوات؟ كلا ولا قبة الفلك الدوار، واختلاف الليل  
والنهار، ولا النجوم الزاهرة، والأنواء الماطرة، لم يجبه لا هذا ولا  
ذاك، وما للجواب عن ذلك إلا روح الرجل والاما أودع الله  
فيه من سره !

ومذا ما ينبغي لسلك إنسان أن يسأل عنه نفسه، فقد أحسن  
ذلك الرجل القفرى، أن هذه كبرى المسائل، وأهم الأمور، وكل  
شيء - سيم الأهمية في جانبها، وكان إذا بحث عن الجواب في فرق اليونان

الجدلية أو في روايات اليهود المبهمة، أو نظام وثنية العرب الفاسد لم يجدده  
الرجل العظيم ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن ولا يتقيده

بالعادات والتقاليد :

وفد قلت إن أهم خصائص البطل ، وأول صفاته وآخرها هي أن  
ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن ، فأما العادات والاستعمالات  
والاعتبارات والاصطلاحات فينبذها ، جيدة كانت أو رديئة ، وكان  
يقول في نفسه : « هذه الأوثان التي يعبدها القوم لا بد من أن يكون  
وراءها ودونها شيء ما هي إلا ومن له (١) ، وإشارة إليه ، وإلا فهي باطل  
وزور وقطع من الشجب لا تقدر ولا تنفع ، وما لهذا الرجل  
والأصنام وأنتى تؤثر في مثل أوثان ولو مرصعت بالنجوم لا بالذهب ،  
ولو عبدتها الجحاح جمع (٢) من عدنان ، والآقيال (٣) من حمير (٤) ؟ أى تخير  
له في هذه ولو عبدتها الناس كافة ؟ لأنه في بلادهم في واد ، هم يعبدون  
في ضلالهم وهو مائل بين يدي الطبيعة قد سطعت لهيبه الحقيقة  
الهائلة ، فإذا إن ينجيها ، وإلا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين .  
فاتجيبها يا محمد ! أحب لا بد من أن توجد الجواب ، أيزعم السكابر أن  
أنه الطمع وسحب الدنيا هو الذي أقام عمداً وأثاره ؟ سحق وأيم الله  
وسخافة وهو س هذا الزعم ، أى فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد  
العرب ، وفي تاج قيسر وصولحان كسرى وبيسيع ما بالارض من  
(١) ما كان مؤلف يظن أن وراء الأصنام شيئاً ، وإنما كانت بتدبيره  
أنها باطل . (٢) جمع جحاح وهو السيد (٣) جمع قبل وهو الملك .  
(٤) بكسر الحاء وسكون الميم ملوك اليمن .

تبيحان وصوالجه ، بأن تصير الممالك والنيجان والديول جميعها بعد  
حين من الدهر ؟ أفي مشيخته مكة ، وفي غنيب منفض الطرف ، أوفي ملك  
كمري وتاج ذهبي البوابة ، منجاة للمرء ومظرة ؟ كلا - إذن فلنصرب  
صفحة عن مذهب الجورين القائل أن محمداً كاذب ولدته موافقة لهم  
حاراً وسببة وسخافة وحقة وإنزلاً ، نفوسنا عنه ولنترفع .

اختلاء محمد بنفسه واعتزاله الناس في شهر رمضان :

وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان ، فيقطع إلى  
السكون والوحدة ، دأب العرب بعاداتهم ، ونعمت العادة ، ما أجل وأرفع ،  
ولا سيما رجل كمحمد ، لقد كان يخلو إلى نفسه فيناجي ضميره ، صامعاً  
بين الجبال الصامته مفتوحاً صدره لأصوات السكون الغامضة الخفية ،  
أجل حبذا تلك عادة ونعمت .

ابتداء البعثة :

فلما كان في الأربعين من عمره ، وقد خلا إلى نفسه في نار جهنم  
( حرام ) قرب مكة شهر رمضان ، لينسكب في تلك المسائل الكبرى ،  
إذا هو قد خرج إلى خديجة ذات يوم وكان قد اصحاباً ، ذلك العام  
وأنزلنا قريباً من مكان مخلوقه ، فقال لها إله بفضل الله قد استعجل  
فانفض السر ، واستأثر كامن الأمر ، وانه قد أنارت الشبهة ، وانجلي  
الشك وبرج الخفاء ، وأن جميع هذه الأصنام محال وليست إلا أختساباً  
حقيرة ، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فهو الحق وكل ما خلاه  
باطل ، خلقنا وبرزقنا ، وما نحن وسائر الخلق والكائنات إلا ظن له

( ١ ) أي بعد زواجه منها .



وستار يحجب النور الابدي ، والرواق السرمدي ، الله أكبر  
ولله الحمد .

### حقيقة الإسلام وكلمة (جوته) فيه :

ثم الإسلام وهو أن نسلم الأمر لله ، ونذعن له ونسكن إليه ونفتوكل  
عليه ، وأن القوة كل القوة هي في الاستقامة لحكمه والخضوع لحكمته ،  
والرضا بقسمته ، أية كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة ، ومهما يصيبنا  
به الله ولو كان الموت الزوام ، فلنتألمه بوجه ميسر ، ونفس مفتحة ،  
راضية ، ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو .

### كلنا مسلمون :

ولقد قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم (جوته) : « إذا كان ذلك  
هو الإسلام ، فكلمنا إذن مسلمون » نعم كل من كان فاسلاً شريفاً  
الخلق فهو مسلم ، وقدماً قبيلاً ، أن منتهى العقل والحكمة ليس في مجرد  
الإذعان للضرورة - فإن الضرورة تخضع المرء برغم أنه ، ولا فضل  
فيما يأتيه الإنسان مكرهاً - بل في اليقين بأن الضرورة الأليمة المرة  
هي خير ما يقع للإنسان ، وأفضل ما يناله ، وإن لله في ذلك حكمة  
تلطف عن الأفهام وتدق عن الأذهان ؛ وأنه من الافق والسخف أن  
يجهل الإنسان من دماغه الضئيل ، ميزانا لذلك العالم وأحواله ، بل  
عليه أن يعتقد أن السكون قانوناً عادلاً ، وإن غاب عن إدراكه ، وأن الخير  
هو أساس السكون والصلاح روح الوجود ، والتمتع لباب الحياة ، نعم  
عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه في سكوت وتقوى .

أقول وما زال في هذه الحلقة المثلى ، والمذهب الأشرف الأطهر ، وما زال الرجل مصيباً وظافراً ، وحرّاً وكريمّاً وسائراً على المنهج الأقوم وسالكاً سبيل السعادة ، وما دام معتصماً بمحبل الله ، متمسكاً بقانون الطبيعة ، الأكبر الأمكن ، غير مبال بالتوانين السطحية ، والظواهر الوقتية ، وحسابات الربح والخسارة ؛ فهو ظافر إذا اتبع ذلك القانون الكبير الجوهري - قطب رحي السكون ومحور الدهر - وليس بظافر إذا فعل غير ذلك ، وحقاً إن أول وسيلة تؤدي إلى اتباع هذا القانون هو الاعتقاد بوجوده ثم بأنه صالح ، بل لا شيء غيره صالح ؛ وهذا يا إخواني هو روح الإسلام ؛ وهذا هو أيضاً روح النصرانية ، والإسلام لو تفقهون ضرب من النصرانية ؛ والإسلام والنصرانية يأسراننا أن نتوكل على الله قبل كل شيء (١) ، وأن نهيئ النفس عن الشهوات ونهني القلب عن الهوى ، وأن لا نهمج في عنان النسي ، وأن نعبر على البعث والأسي ، وأن نعرف أننا لا نعرف شيئاً ، وأن نرضى من الله كل ما قسم ، ونعدّها يداً بيضاء ، ونعمة غراء ، ونقول الحمد لله على كل حال وتبارك الله ذو الفضل والجلال ، ونقول : دأبنا بقسمة الله راضون ، ولو كان ما قسم لنا المنون .

الوحي وجبريل :

فن فضائل الإسلام : تصحية النفس في سبيل الله ، وهذا أشرف ما نزل من السماء على بني الأرض ، نعم هو نور الله قد سطع في روح ذلك الرجل ، فأزاد ظلماتها ، ورضيها باهر ، كسفت تلك الظلمات التي

---

(١) الأصح أن النصرانية الصحيحة هي الإسلام دين عيسى عليه السلام.

كانت تؤذن بالحسرة والحلاك، وقد سماه (١) محمد (عليه السلام) وحياً  
 و (جبريل) ، وأياها يستطيع أن يحدث له اسماء؟ ألم يجيء في الإنجيل أن  
 وحى الله يهبنا الفهم والإدراك؟ ولا شك أن العلم والفناء إلى صميم الأمور  
 وجواهر الأشياء ليس من أغصان الأسرار لا يكاد المتفكرون يلمسون  
 منه إلا قشوره ، وقد قال نوقليس : ( أليس الإيمان هو المعجزة  
 الحقة الدالة على الله ؟ ) فتشعور محمد إذا اشغلت روحه بلمحظ هذه  
 الحقيقة الساطعة ، بأن الحقيقة المذكورة هي أهم ما يجب على الناس علمه  
 لم يك إلا أمراً بديهياً .

معنى كلمة محمد رسول الله :

وكون الله قد أنعم عليه بكشفها له ، ونجاه من الهلاك والظلمة ،  
 وكونه قد أصبح منظاراً إلى إظهارها للعالم أجمع - هذا كله هو معنى  
 كلمة ( محمد رسول الله ) وهذا هو الصدق الجلي والحق المبين .  
 فضل السيدة خديجة ، وحلى ، وزيد بن حارثة :

ويخيل لي أن الصالحة خديجة أصغت إليه في دهشة وشك ، ثم آمنت  
 وقالت « أى ورثي إنه لحق » وتخيّل أن محمداً شكر لها ذلك الصنيع .  
 ورأى أن في إيمانها بكاملته المخصوصة المقدوفة من بركان صدره ، جميلاً يفوق  
 كل ما أسدت إليه من قبل ، فإنه ليس أروح لنفس المرء ، ولا أناج لحشاه  
 من أن يجد له شريكاً في اعتقاده ، ولقد قال نوقليس : « ما رأيت شيئاً قط  
 أكد ليقيني ، وأوثق لاعتقادي من انضمام إنسان آخر إلى رأيي ، نعم

(١) بل لم يسمه محمد ﷺ وحياً ، وإنما هو وحى الله .

لأنه لصنيع أغرّ ، ونعمة وفيرة ، وكذلك ما أنفك محمد يذكر خديجة حتى لقي ربه ، حتى أن عائشة — زوجة الصغيرة المحبوبة تلك التي اشتهرت بين المسلمين بجميع المفاقب والفضائل طول حياتها — هذه السيدة البارة الجمال والفطنة ، سألته ذات يوم : « أليست الآن أفضل من خديجة ؟ » لقد كانت أرملة مسنة قد ذهب جاهداً ، وأراك تتجنّب أكثر مما كنت تحبها : « فأجاب محمد : كلا والله لست أفضل منها وكيف وهي التي آمنت بي والسكل كافر ومكبر ، ولم يك لي في هذا العالم إلا صديق واحد — وهذا الصديق هي . « وقد آمن به مولاه زيد بن حارثة ، وعلى ( عليه السلام ) ، ومولاه الثلاثة أول من آمن به .  
الدعوة إلى الإسلام وما قاله محمد في سبيلها :

وجعل يذكر رسالته لهذا ولذلك ، فما كان يصادف إلا جوداً وسخريّة ، حتى أنه لم يؤمن به في خلال ألاء أعوام إلا ثلاثة عشر رجلاً وذلك منتهى البطء وبؤس التشجيع ، ولكنه المنة نظر في مثل هذه الحال . وبعد هذه السنين الثلاث أدب<sup>(١)</sup> ما ذبة لأربعين من ذوي قرابته ، ثم قام بينهم خطيباً ، فذكر دعوته وأنه يريد أن يذيعها في سائر أنحاء السكون وأنها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة ، فأبهم يمد إليه يده .  
 ويأخذ بفاصره ؟

سروة على ونجدته :

وبينا القوم صامتون حيرة ودهشة وثب على ( كرم الله وجهه ) - وكان غلاماً في السادسة عشرة - وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح

(١) أدب بفتح الالف والdal : صنع طعاماً ودعا إليه الناس .

في أحد طاعة ، أنه ذاك النصير والظهير ، ولا يحتمل أن تقوم كانوا  
 منابذين محمداً ومعاديه ، وكامهم من ذوى قرابته ، وفيهم أبو طالب  
 هم محمد وأبو علي ، ولكن رؤية رجل كهل أمي يعينه غلام في السادسة  
 عشرة يقومان في وجه العالم بأجمعه ، كانت مما يدعوا إلى العجب المذهل  
 فانقض القوم ضاحكين ، ولكن الأمر لم يك بالمضحك ، بل كان نهاية  
 في الجدة والخطر ، أما على فلا يسعنا إلا أن نحبه ونعشقه ، فإنه فقي  
 شريف القدر ، كبير النفس يفيض وجدانه راحة وبراً ، وينالني فؤاده  
 نجدة وحساسة ، وكان أشجع من ليث ، ولكنها شجاعة بمروجة برقة  
 ولطف ، ورأفة وحنان ، جدير بها فرسان الصليب في القرون الوسطى ،  
 وقد قتل بالكوفة خيلة ، وإنما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله ، حتى  
 حسب كل إنسان عادلاً مثله ، وقال قبل موته حينما أومر في قتاله :  
 « إن أعش فالأمر لي ، وإن أمت فالأمر لكم ، فإن أقرتم أن تقتصوا  
 فضربة بضربة ، وإن تعفوا أقرب إلى التقوى » .

### استيلاء قريش من عمل محمد :

وكان في عمل محمد هذا إساءة ولا شك إلى قريش ، حواس الكعبة  
 وخدمة الأصنام ، وانضم إليه منهم رجلان أو ثلاثة أولو بأس ونفوذ ،  
 وسرى أمر محمد ببطء ولكنه سرعان على كل حال ، وكان عمله بالطبع  
 صوء الواقع لدى كل إنسان ، وجعلوا يقولون من هذا الذي يزعم أنه  
 أحقل مما جميعاً ، والذي يعنفنا ويرميننا بالحق وعبادة الخشب ؟

### نصيحة أبي طالب وعزيمة محمد :

وأشار عليه أبو طالب أن يكتف أمره ويؤمن به وحده ، وأن يكون  
لله من نفسه ما يشغله عن العالم ، وأن لا يسخط القوم ويشين غيبهم عليه  
فيختار (١) بذلك حياته ، فأجابه محمد : والله لو وضعوا الشمس في يميني  
والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظلمه الله ، أو  
أهلك فيه ما تركته ، كلا فإن في هذه الحقيقة التي جاء بها ، شيئاً من  
عصر الطبيعة (٢) ذاتها ، لا تفضل الشمس ولا القمر ، ولا أى مصنوعات  
الطبيعة ، ولا بد لتلك الحقيقة من أن تظهر ، برغم الشمس والقمر ،  
مادام قد أراد أن تظهر ، وبرغم قرينيه جميعاً ، وبكره سائر الإنلاق  
والكائنات ، نعم لا بد من أن تظهر ، ولا يسعها إلا أن تظهر ، بذلك  
أجابه محمد ؛ ويقال إنه « اغرورقت عيناه » اغرورقت عيناه لفقد  
أحسن من عمه البر والشفقة ، وأدرك وعورة الحال ، وعلم أنه أمر ليس  
بالهين اللين ، ولكنه أمر صعب المراس مرّ المذاق .

### مواصلة محمد الدعوة واحتماله الشدائد :

واستمر يودى الرسالة إلى كل من أصغى إليه ، وينشر مذهبه بين  
الحجيج ، مدة إقامتهم بمكة ؛ ويستميل الأتباع هنا وهناك ، وهو ياتي  
أثناء كل ذلك منابذة ومناوأة ، ومناسبة بالعداوة ؛ وبجسارة وشرأ بادية  
وكامناً ؛ وكانت أقدار به تحميه وتدافع عنه ؛ ولكنه هزم هو وأتباعه  
على الهجرة إلى الحبشة ، فوقع نحو ذلك المزم من قرين أسوأ موقع ،

(١) أى يعرض حياته للخطر . (٢) بل هي من مخلوقات الله .

وضاعت حنتهم عليه فنصبوا له الأشرار ؛ وبشوا له الحبائل ؛ وأقسموا بالآلهة ليقتلن محمداً بأيديهم ؛ وكانك خديجة قد توفيت وتوفى أبو طالب ؛ وتعلمون أصلاً حكم الله أن محمداً ليس بحاجة إلى أن نرئى له ولحاله الشكراء ؛ إذ ذاك ومقامه الضئيل ، وموقفه الحرج ؛ ولكن اعرفوا معنى أن حاله إذ ذاك من الشدة والبلاء لم ير مثلهما لإنسان قط ؛ فلقد كان يخفيه في الكهوف ويفر متفكراً إلى هذا المكان ؛ وإلى ذاك ؛ لا مأوى ولا نجوى ؛ ولا ناصر ؛ تتمده الهللكات ؛ وتفخر له أفراها المنايا ؛ وكان الأمر يتوقف أحياناً على أدنى صغيرة - كما جفأ فرس من أفراس أتباع محمد - فلو حدث ذلك لاعتاع كل شيء ؛ ولكن أمر محمد - ذلك الأمر العظيم ما كان لينتهى على مثل تلك الحال .

#### تألب قريش على محمد ليقتلوه ، وهجرته إلى المدينة :

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته ؛ وقد وجد أعداءه متآلبين عليه وكانوا أربعين رجلاً ؛ كل رجل من قبيلة ؛ اتهموا به ليقتلوه وإلى المقام بمكة مستحيلاً ، هاجروا إلى يثرب حيث التف به الأنصار ، والبلدة تسمى الآن « المدينة » أى مدينة النبي ، وهى من مكة على ٢٠٠ ميل تقويم وسط صحور وقفار ، ومن هذه الهجرة يبتدىء التاريخ فى المشرق والسنة الأولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية ، وهى السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد ، فترون أنه كان قد أصبح إذ ذاك شيخاً كبيراً وكان أصحابه يوتون واحداً بعد واحد ، ويخلون

أمامه مسلسلًا وهراً ، وسبيلًا قفراً وخطة نكراء موحشة . فإذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعاً ومحركاً ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه ، فبيّات أن يجد بأوقات الأمل ، فيما يصدق به من عوالب الخطوب ، ويحيط به من كالحات المحن والملمات ، وهكذا شأن كل إنسان في مثل هذه الأحوال .

الرد على الفاتلين بأن الإسلام انتشر بالسيف :

وكانت نية محمد صلى الله عليه وآله أن ينشر دينه بالحسكة ، والموعظة الحسنة فقط ، فلما وجد أن القوم الفاتلين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية ، وعدم الاصغاء إلى صوت ضميره وصيحة ليه ، حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة - هزم ابن الصحرأ على أن يدافع عن نفسه ، دفاع رجل ثم دفاع عربي ، ولسان حاله يقول : أما وقد أبعد قريش إلا الحرب ، فلينفقروا أي فتيان هيباء نحن ، وحقاً رأى فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق ، وشرية الصدق ، وأبوا إلا تمادياً في ضلالهم يستبجحون الحريم ، ويهتكون الحرمات ، ويسلبون وينهبون ، ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها ، ويأتون كل لثم ومنكر ، وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة ، فأبوا إلا عتوا وطغفاناً ، فليجمل الأمر إذن إلى الحسام المهند ، والوشيج المقوم ، وإلى كل سرودة حصداء ، وسابحة جرداء ، وكذلك فعلى محمد بقية عمره وهي عشرين سنين أخرى في حرب وجهاد ، لم يسترح غمضة عين وكانت النتيجة ما تملعون (١) ؟

(١) كلامه السابق يؤخذ به من لأنه إن أنصف الإسلام في نقطة يسى إليه في أخرى .



واقف قبل كثير أ في شأن نشر محمد دينه بالسيف ، فإذا جعل  
الإناس ذلك دليلاً على كذبه ، فشد ما أخطأوا وجاروا ، فهم يقولون :  
ما كان الدين لينشر لولا السيف ، ولكن ما هو الذي أوجد السيف ؟  
هو قوة ذلك الدين وأمه حق ، والرأى الجديد أول ما يذنب ما يكون  
في رأس رجل واحد ، فالذي يعتقده هو فرد — فرد ضد العالم أجمع .  
فإذا تناول هذا الفرد ميعاً وقام في وجه الدنيا والله يضيح . وأرى  
على العموم أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة ، حسبما تقتضيه الحال .  
أو لم تروا أن النصرانية كانت لا تأنب أن تستخدم السيف أحياناً ؟  
وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون ، وأنا لا أحفل أكان انتشار  
الحق بالسيف ، أم باللسان أم بأية آلة أخرى .

لا يصح إلا الصحيح :

فلندع الحقائق فنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالانار .  
لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها إن تنوم إلا  
ما كان يستحق أن يهزم ، وليس في طاقتها قط أن ألفى ما هو خير  
منها ، بل هو أحسن وأدنى ، فإنها حرب لا حكم فيها إلا الطبيعة ذاتها ،  
ونعم الحكم ما أعدل وما أقسط ، وما كان أعين جذوراً في الحق ،  
وأذهب أعرافاً في الطبيعة ، فذلك هو الذي ترويه بعد الهرج والمرج  
والفضواء والجلابة ، نامياً زاكياً وحده .

#### عدل الطبيعة :

أقول الطبيعة أعقل حكم ، بل ، ما أعدل وما أعقل وما أرحم وما  
أحكم أذلك تأخذ حبوب القمح لتجملها في بطن الأرض ، ورعا كانت  
هذه الحبوب مخلوطة بقشور وتبن وقمامة وتراب ، وسائر أحصناف  
الافاتار ، ولكن لا بأس عليك من ذلك ، والحق الحبوب بجميع

ما يحاطها من القذى في جوف الأرض العادلة البارة فإنها لا تمليك  
 إلا قهراً خالصاً نقياً فأما القذى فإنها تبعه في سكون وتدفقه ولا تذكر  
 عنه كلمة وما هي إلا برهة حتى ترى الفمح زاكياً يتركانه سبائك الذهب  
 الإبريز ، والأرض السكرية قد طوت كشحات إلى الأبداء وأخضت بل  
 أنها حولتها كذلك إلى أشياء نافذة ولم تشك منها شجراً ولا نصيباً ،  
 وهكذا الطبيعة في جميع شؤونها فهي حق لا باطل ، وهي عاقبة وحادة  
 ورحيمة حنون ، وهي لا تشترط في الشيء إلا أن يكون صادق الباب  
 حر الصميم ، فإذا كان كذلك حتمه وحرسه ، أو كان غير ذلك لم تحميه ولم  
 تحرسه ، فترى لكل شيء فهمه الطبيعة روحاً من الحق ، ليس شأن  
 سبب الفمح هذه والطبيعة هو شأن كل حقيقة كبرى ، جاءت إلى هذه  
 الدنيا أو تجيء فيما بعد ؟ أعني أن الحقيقة مزيج من حق وباطل ، نور  
 في ظلام ، وتجيئنا الحقائق في أثواب من القضايا المطلقة والنظرات  
 العلمية عن الكائنات . لا يمكن أن تكون تامة صحيحة صائبة ، ثم لا بد  
 منه أن يحمى يوم يظهر فيه نقصها وخلوها وجورها ، فتموت وتذهب .  
 نعم يموت ويذهب جسم كل حقيقة ولكن الروح يبقى أبداً ويتخذ  
 ثوباً أظهر ، وبدناً أشرف ، وما يزال ينتقل من الأثواب والأبدان  
 من حسن إلى أحسن وجيد إلى أجود ، مسنة الطبيعة التي لا تتبدل ،  
 نعم لأن جوهر الحقيقة الكريم حتى لا يموت ولا ينسا النقطة المهمة  
 والأمر الوحيد الذي يعرض في عكمة الطبيعة ويجاس قضائها ، هو هل  
 هذا الروح حق وهووت من أعماق الطبيعة ؟ وليس بهم عند الطبيعة  
 ما نسميه نفاة الشيء أو عدم نقائه وليس هو بالسؤال النهائي ، ليس الأمر  
 المهم عند الطبيعة حينما تقدم إليها أنت لتصدر حكمها فيك ، هو أفليك  
 أقدار وأكدار أم لا ؟ وإنما هو أفليك جوهر حق وروح صدق أم لا ؟

أو بمباراة تشييمية ليس السؤال المهم عند الطبيعة هو أفيك قشور أم لا ؟ بل أفيك قح ؟ أيقول بعض الناس إنه نقى ، إني أقول له : نعم نقى — نقى جداً ولكنك قشر — ولكنك باطل وأكذوبة وزور وثوب بلا روح وبجـرد اصطلاح وعادة ، وما امتد بينك وبين شمر السكون وقلب الوجود سبب ولا صلة ، والواقع أنك لا نقى ولا غير نقى ، وإنما أنت لا شيء ، والطبيعة لا تعرفك وأنها منك براء .  
 قضاء محمد على وثنية العرب والمقائد الفاشية في تلك الأيام

وانظر محمد من وراء أصنام الرب السكاذبة ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ، ودواياتهم وبراهينهم ، ومن أعمهم وقضايهم — انظر ابن القفار والصحاري بقلبه البصير الصادق ، وعينه المتوقدة الجليلة إلى ابواب الأسرار وصميمه فقال في نفسه : الوثنية باطل ، وهذه الأصنام التي تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب ، أخشاب لا تضر ولا تنفع ، وهي منك فظيع وكفر لو تعلمون ، إنما الحق أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، خلقكم وبهيد حياتكم وموتكم ، وهو أراف بكم منكم ، وما أصابكم من شيء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون .  
 وإن ديناً آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بفلوبهم النارية لجدير أن يكون حقاً وجدير أن يصدق به ، وأن ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشيء الوحيد الذي للإنسان أن يؤمن به ، وهذا الشيء هو روح جميع الأديان — روح تلبس أثواباً مختلفة وأثواباً متعددة ، وهي في الحقيقة شيء واحد ، وبتابع هذه الروح يصبح الإنسان اماماً كبيراً لهذا المعبد الأكبر : السكون جوارياً على قواعد الخلق ، تابعاً لقوانينه لا يحاول عبثاً أن يقاومها ويدافعها ، ولم أعرف قط تعريفاً لواجب

أحسن من هذا ، والصواب كل الصواب في السير على منهاج الدنيا ، فإن  
الفلاح في ذلك ( إذا كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح ) .

وسواء محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدل وتتنابط بالهيج  
الجائرة وماذا أفاد ذلك ؟ وماذا أثمر ؟ أما أن الأهم ليس صحة ترتيب  
القصايا المنطقية وحسن إنتاجها وإنما هو أن خلق الله وأبناء آدم  
يمتدرون تلك الحقائق الكبرى . ففسد بناء الإسلام على تلك المال  
السكاذبة والنحل الباطلة ما يتلها وحق له أن يتلها لأنه حقيقة خارجة  
من قلب الطبيعة ، وما كاد يظهر الإسلام حتى احترقت فيه وثنيات  
العرب ، وكل ما لم يكن بحق ، فإنها سطبت ميت أكلته نار الإسلام .  
فذهب والنار لم تذهب .

### القرآن وإعجازه

أما القرآن فإن فرط إعجاب المسلمين به وقولهم بإعجازه هو أكبر  
دليل على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة . هذا وأن الترجمة تذهب  
بأكثر جمال الصنعة (١) وحسن الصياغة ولذلك لا عجب إذا قلت أن الأوربي  
يجهل في قراءة القرآن أكبر عناء ، فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد ، لا يزال  
يقطع في صفحاته قفارا من القول الممل المنعب ، ويحمل على ذهنه هضابا  
ويجهل الأمن السكام ، لكي يمتدني خلال ذلك على كلمة مفيدة ، أما العرب  
فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملائمة ، ولأن  
لا ترجمه ذهبت بحسنه ورواقه ، فلذلك رآه العرب من المعجزات  
وأعطوه من النجيل ما لم يعطه ألقى النصارى للإنجيلهم ، وما جرح في  
كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل والقانون المتبع في شؤون الحياة

---

(١) الأصح أن يقال بلاغته الإلهية .

ومسائلها . والوحى المنزل من السماء هدى للناس وسراجاً منيراً ،  
 يعنى لهم سبيل العيش ويهديهم صراطاً مستقيماً ، ومصدر أحكام  
 النضاه ، والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستئثار به فى غياب  
 الحياة ، وفى بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة ،  
 يتناسمهم ثلاثون قارئاً على النوالى ، وكذلك ما يروح هذا الكتاب يرون  
 صورته فى آذان الآلاف من خلق الله وفى قلوبهم اثني عشر قرناً فى كل  
 آن ولحظة ، ويقال إن من النقهاء من قرأه سبعين ألف مرة ١١

### الإخلاص من فضائل القرآن :

لماذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان ، وإذا خرجت  
 من القلب نفذت إلى القلب ، والقرآن خارج من فؤاد محمد (ص) فهو جدير  
 أن يصل إلى أفئدة سامعيه وقارئييه . وقد زعم «براديه» وأمثاله أنه  
 طائفة من الأحاديث والنزاويق انفقها محمد لتكون أعذاراً له عما كان  
 يرتكب ويعترف ، وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته ١١ ولكنه قد آن  
 لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال ، فإنى لامة كل من يرى محمدأ  
 بمثل هذه الأكاذيب وما كان ذو نظر صادق ليرى قط فى القرآن مثل  
 ذلك الرأى الباطل . والقرآن لو تبصرون ما هو إلا جرات ذاكيات  
 قدفت بها نفس رجل (٢) كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال ،  
 فى الخاتوات الصامتات ، وكانت الحواطر تترامى عليه بأسرع من لمح  
 البصر ، وتتراحم فى صدره حتى لا تسكاد تجرد محرماً ، وقل ما نطق  
 به جانب ما كان يحويش بنفسه العظيمة القوية ، هذا وقد كان تدفع الوقائع

(١) و (٢) هذا تعبير خاطئ ، والصحيح أنه وحى من الله .

وتدق الخطوب يعجبه عن رؤية القول ، وتميق السكك ويا لها من  
خطوب كانت تطيح به ، وتطير ، فلقد كان في هذا السنين الثلاث  
والعشرين قطباً لرحى حوادث متلاحقات متصادمات وعالم كله هرج  
وفتن وحين : حروب مع قریش والسفار ، ومخاصمات بين أصحابه (١) ،  
وهياج نفسه وثوراتها - كل ذلك جعله في نصب دائم وعناء مستمر فلم  
تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط ، وقد أتخيل روح عمدة الحادة  
الدارية وهي تتمدد طول الليل الساهر يطفو بها الوجد ويرسب وتدور  
بها دوامات الفكر حتى إذا أسفرت لها بارقة رأى حسبته نوراً بهط عليها  
من السماء ، وكل هزم مقدس يهيم به يخاله جبريل ووحيه (٢) . أين عم  
إذا فكون الجملة انه مشعوذ ومحتال ؟ كلا ثم كلا ! ما كان قط ذلك  
القلب المحتدم الجائش كأنه تمور فكر يفور ويتأجج ، ليكون قلب  
محتال ومشعوذ . لقد كانت حياته في نظره حقاً ، وهذا الكون حقيقة  
رائعة كبيرة .

### الإخلاص منشأ الفضائل :

والإخلاص المحض الصراح يظهر لي أنه فضيلة القرآن التي حبيبته  
إلى العربي وهي أول فضائل الكتاب أيا كان وآخرها وهي منشأ فضائل  
غيرها ، بل لا شيء غيرها يمكنه أن يهتد للكتاب فضائل أخرى ، من  
العجب أن نرى في القرآن عرقاً من الشعر يجرى فيه من بدايته إلى نهايته  
ثم يتخلله نظرات نافذات - نظرات نبى وحكيم - أجل لقد كان محمد

(١) لم يحدث بين الصحابة مخاصمات إلا كما يكون بين الإخوة  
والأحباب . (٢) بل كان ﷺ مؤيداً بهداية الله لا يتخيل إليه .

في شؤون الحياة عين بصيرة ثم كان له قدرة عظيمة على أن يوقع  
في أذهاننا كل ما أبصره ذهنه (١) .

### القرآن عمل أسرار الأمور:

أنا لا أحفل كثيراً بما جاء في القرآن من الصلوات والتحميد  
والنمجة لأنني أرى لها في الإنجيل شبيهاً ، ولكنني شديد الإعجاب  
بالنظر الذي ينفذ إلى أسرار (٢) الأمور، فهذا أعظم ما يلذني ويعجبني،  
وهو ما أجده في القرآن ، وذلك كما قلت فضل الله يؤتیه من يشاء .

### المعجزات في نظر الإسلام :

وكان محمد إذا سئل أن يأتي بمعجزة قال : حسبكم بالسكون معجزة  
انظروا إلى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله ؟ وآية على وجوده  
وعظمته ! هذه الأرض التي خلقها الله لكم ونهج لكم فيها سبيلاً  
تسعون في مراكبها وتأكلون من رزقه وهذا السحاب المسير في الآفاق  
لا يدري من أين جاء وهو مستخر في السماء كل معجزة كارد أسود ثم  
يسبح بمائه ويهبط ليحيي أرضاً مواتاً ويخرج منها نباتاً ونخلاً  
وأعشاباً : أليس ذلك آية ؟ والألغام خلقها لكم تحول الكلاء لهناءً  
وهي فخر لكم . والسفن - وكثيراً ما يذكر السفن - كالجبال العظيمة  
المنحركة تنشر أجنحتها وتحفز في سواها اليم ، لها حاد من الريح ويلها  
تسير إذا هي فسد وقت بغثة وقبض الله الريح ، معجزات والله  
كل هذه وأى معجزات بعدها تريدون ؟ أستم أنتم معجزات ! لقد  
كنتم صغاراً وقبل ذلك لم تكبروا أبداً ثم لكم جمال وقوة وعمل ، ثم

(١) هو يرى أن في القرآن شعراً ، وهذا قول باطل : ﴿ وما علمناه  
الشعر وما يلغى له ﴾ . (٢) ليس نظراً وإنما هو كلام الله تعالى .

وهبكم الرخمة أشرف الصفات ، وتزودون ويأتىكم المشيب وتضعفون  
وتنقض عظامكم وتموتون فتصيبوا غير موجودين دشم وهبكم الرحمة ،  
لقد أدهشتنى جداً هذه الجملة ؛ فإن الله ربها كان خلق الناس بلا رحمة  
فإذا كان يكون أمرهم هذه من محمد نظرة نافذة إلى لباب الحقيقة .  
وكذلك أرى في محمد دلائل شاعرية كبيرة وآيات على أشرف  
الحامد وأكرم الحاصل . وأتبع فيه عقلاً راجحاً عظيماً وعيناً بعيدة  
وفؤاداً صادقاً ورجلاً قويا عبقرياً ولو شاء لسكان شاعراً فحلاً أو فارساً  
بطلاً ، أو ملكاً جليلاً ، أو أى صنف من أصناف الأبطال . نعم  
لقد كان العالم في نظره معجزة أى معجزة . وكان يرى فيه كل ما كان  
يراه أعظم المفكرين حتى أهم الشمال المتوحشة ، وهو أن هذا  
الكون الصلب المادى إنما هو فى الحقيقة لا شيء إنما هو  
آية على وجود الله منظورة مدوسة وهو ظل عاقله الله على صدر  
الفضاء لا غير . وكان يقول : هذه الجبال الشاهقات ستحلل وتذوب  
مثل السحاب وتنفى ، وكان يقول : الجبال أوتاد الأرض وإنما ستنفى  
كذلك يوم القيامة وأن الأرض فى ذلك اليوم العظيم تنهدع وتنفتت  
وتذهب فى الفضاء هباءاً منثوراً ، فتندم ، وكان لا يزال واضحاً  
لهيئته سلطان الله على كل شيء وامتلأ كل مكان بقوة مجهولة ، وروقى  
باهر ، وهول عظيم ، هو القوة الصادقة والجوهر والحقيقة ، وهذا  
ما يسميه علماء العصر القوى والمادة ، ولا يرونه شيئاً مقدساً ، بل  
لا يرونه شيئاً واحداً وإنما هو أشياء تبايع بالدرهم وتوزن بالمشقال ،  
وتستعمل فى تسير السفن البخارية ، فمرحان ما تنسينا السكياويات



والحسابيات ما يمكن في السكائنات من سر الله ، وما أخش ذلك النسيان  
 حاراً ، وأكبر هذه الغفلة إتيماً ، وإذا فسيها ذلك فأى الأمور يستحق  
 الذكر إذن ، فعظم العلوم أشياء هينة خاوية بالية - بقلة ذابطة ، نعم  
 وما أحسب العلم لولا ذلك إلا خشياً يابساً ميتاً وليس هو بالشجرة  
 القامية ، ولا بالغابة الكشيغة الملتفة ، التي لا تبرح تمدك بالخشب إثر  
 الخشب فيما تمدك وتعطيك ، وإن يمد المرء السيل إلى العلم حتى يحمده ،  
 أولاً إلى العبادة ، أعنى أنه لا علم إلا لمن عبده ، وإلا فما العلم إلا شقة شقة  
 كاذبة ، وبقلة كما قلت ذابطة .

### الرد على متهمى الاسلام بشهوائيه :

وقد قيل وكتب كثيراً في شهوانية الدين الإسلامى ، وأرى كل  
 ما قيل وكتب جوراً وظلماً ، فإن الذى أباحه محمد بما محرّمه المسيحية لم  
 يمكن من تلقاء نفسه ، إنما كان جارياً مقبلاً لدى العرب من قديم الأزل ،  
 وقد قلل محمد هذه الأشياء جهده ، وجعل عليها من الحدود ما كان  
 في إمكانه أن يجعل ، والدين المسمى بـ محمدى بعد ذلك ليس بالسمل ولا بالمين ،  
 وكيف ومعه كل ما تعملون من الصوم والوضوء ، والقواعد الصعبة  
 الشديدة ، وإقامة الصلاة خمساً في اليوم ، والحرم من الخمر ١١ . وليس كما  
 يزعمون : كان نجاح الإسلام وقبول الناس إياه لسهولة ، لأنه من  
 أخش الطعن على نبي آدم والقدح في أعراسهم ، أن يتموا بأن الجاهل  
 لهم على محاولة الجلائل وإتيان الجسائم ، هو طالب الراحة ، واللذة  
 التماس الحلو من كل صنف في الدنيا والآخرة أكلاً فإن أخس الآدميين

لا يخلو من شيء من العظمة والجلال ، فالجندى الجاهل الجلف الذى يؤجر يمينه وروحه فى الحروب بأجر بخس ، له مع ذلك « شرف » ، يخلف به فتراه لا يبرح يقول : لأفعلن ذلك وشرفى ، وليست أمنية أحقر الآدميين هى أن يأكل الحلوى ، بل أن يأتى عملاً شريفاً وفعلًا محموداً ، ويثبت للناس أنه رجل فاضل كريم . ليعمد أيكم إلى أبعد إنسان فيريده سبيل المكرمات والمحامد ، فإذا هو قد تأجج قلبه حماساً واتقدت نفسه غيرة ، وصار فى الحال بطلاً . وما أظلم الذين يتهمون الإنسان بقوطم لأنه ميال بفطرته إلى الراحة ، وإنه يستهوى بالترف ويستغوى باللذة ، إنما مغريات الإنسان وجاذباته هى الأهوال والسمائب والاستشهاد والقتل ، اقذح ما بنفس المرء من زناد الفضل ، تذكر ناراً تخرق سائر ما فيه من الخسائس والنقائص . وما كان قط اعتناق الناس لدين من الأديان لما يرجون من متاع ولذة ، بل لما يشور فى قلوبهم من دراعى الشرف والعظمة .

#### براعة محمد من الشهوات وتواضعه وتقشفه :

وما كان محمد أخا شهوات ، برغم ما اتهم به ظالموا وعدوانا ، وشدة ما فجور ونخبطه إذا حسبناه رجلاً شهويًا ، لاهم له إلا قضاء ما ربه من الملاذ ، كلاً ، فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت ، لقد كان زاهداً متقشفاً فى مسكنه ، وما أكله ، ومشربه ، وملبسه ، ومماثر أموره وأحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء ، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار ، وانهم ليذكرون - ونعم ما يذكرون - أنه كان

يصلح ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فخبذا محمد  
 من رجل خشن اللباس ، خشن الطعام ، مجتهد في الله قائم النهار ، ساهر  
 الليل ، داثبا في نشر دين الله ، غير طامع إلى ما يطمح إليه أصاغر  
 الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان ، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة  
 كيفما كانت ، رجل عظيم وربكم وإلا فما كان ملاقيا من أولئك  
 العرب الغلاظ توفيرا واحتراما وإكبارا وإعظاما ، وما كان يمكنه  
 أن يقودهم ويمارشهم معظم أوقانه ، ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون  
 به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله ، لقد كان في هؤلاء العرب جفاء ،  
 وغاظة ، وبادرة ، وعجرفة ، وكانوا حماة الأنوف ، آية الضيم ،  
 وعرو المقادة صماب الشكيمة ، فمن قدر على رباعتهم ، وتذليل جانبيهم  
 حتى رضخوا له واستقادوا فداكم وأيم الله بطل كبير ، ولولا ما  
 أبصروا فيه من آيات النبل والفضل ، لما خضعوا له ولا أذعنوا ،  
 وكيف وقد كانوا أطوع له من بنيانه .

وظي أنه لو كان أتبع لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه  
 وصولجانه لما كان مصيبا من طاعتهم مقدار ما ناله محمد ، في ثوبه  
 المرقع بيده ، فكذلك تكون المنظمة ، وهكذا تكون الأبطال .

#### مكرمات محمد وأخلاقه :

وكانت آخر كلماته تسبيحا وصلاة - صوت فؤاديه بين الرجاء  
 والخوف ، أن يصعد إلى ربه ، ولا يحسب أن شدة تدينه أذرت بفضلله  
 كلاب زادت فضلا ، وقد يروى عنه مكرمات عالية ، منها قوله حين  
 رزى غلامه (١) :

(١) أي حين فقد ابنه إبراهيم .

« العيين قد مع والقلب يوجع ، ولا تقول ما يستخط الرب » .  
ولما استشهد مولاه زيد ابن حارثة في غزوة « مؤتة » ، قال محمد :  
« لقد جاهد زيد في الله حق جهاده ، وقد اتى الله اليوم فلا بأس  
عليه » ، ولما سكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكي على جثة أبيها - وجدت  
الرجل السكهل الذى دبّ في رأسه المشيب يذوب قلبه دمعاً ، فقالت :  
« ماذا أرى » ؟ قال : « صديقا يبكي صديقه »

مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال ترينا في محمد أخا الإنسانية  
الرحيم ، أخانا جميعا الرؤوف الشفيق ، وابن أمنا الأول وأبنا الأول .  
براعة محمد من الرياء والتصنع :

ولمّا أحب محمدُ أبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان  
ابن القنار هذا رجلاً مستقل الرأى ، لا يعول إلا على نفسه ، ولا يدهى  
ما ليس فيه ، ولم يك متسكراً ولا سكتاً لم يكن ذليلاً ضرعاً . فهو قائم  
في ثوبه المرقع كما أوجده الله ، وكما أراد ، يخاطب بقوله الحراميين ،  
قياصرة الروم وأكاسرة الدجم ، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه  
الحياة وللحياة الآخرة ، وكان يعرف لنفسه قدرها ، ولم تخل الحروب  
الشديدة التى وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ، ولستكم لم تخل  
كذلك من دلائل رحمة وكرم وفقران . وكان محمد لا يعتذر من الأولى  
ولا يفتخر بالثانية ، إذ كان يراها من وحى وجدانه (١) وأوامر  
شعوره ، ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين .

(١) بل هي من وحى لطفى لتكون سلفاً من بعده .

ما كان محمد بعابث :

وكان رجلاً ماضى العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد وطالما كان يذكر يوم «نبوك» إذا أبى رجاله السير إلى موطن القتال ، واحتجوا بأنه أوان الحصيد<sup>(١)</sup> ، وبالحرق ، فقال لهم : الحصيد ! إنه لا يابث إلا يوماً فماذا تنزودون للأخرة ؟ والحرق ؟ نعم لأنه حر ولكن جهنم أشد حراً ، وربما خرج بعض كلامه تهكماً وسخرية ، إذ يقول للكفار : ستجنون يوم القيامة على أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبعثون مشقال ذرة . وما كان محمد بعابث قط ، ولا شاب شيئاً من قوله شائبة لعب ولهو بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح ومسألة فناء وبقاء ، ولم يك منه إذاءها إلا الإخلاص الشديد ، والجد المر .

التلاعب بالحقائق من أفطع الجرائم :

فأما التلاعب بالأقوال والقضايا المختلفة ، والعبث بالحقائق ، فما كان من شأنه قط . وذلك هدفى أفطع الجرائم ، إذ ليس هو إلا ردة القلب ووسن العين عن الحقائق ، وعيشة المرء في مظاهر كاذبة ، وليس كل ما يستنكر من مثل هذا الإنسان ، هو أن جميع أقواله وأعماله أكاذيب ، بل أنه هو نفسه أكذوبة ، وأرى نخصلة المروءة والشرف - شعاع الله - متضائلاً في مثل ذلك الرجل مضطرباً بين عوالم الحياة والموت - فهو رجل كاذب ، لا أنكر أنه مصقول اللسان ، مهذب حواشي الكلام ، عترم في بعض الأزمان والأمكنة ؛ لا تؤذيك بادرته ؛ لين المس رقيق اللبس ؛ لكنه كحمض الكربون ، تراهم على أطفه سماً فقيماً وموتاً ذريعاً<sup>(٢)</sup>

(١) القائلون لذلك هم المنافقون لأصحابه الرسول ﷺ .

(٢) من قوله «إذ ليس هو إلا» إلى «موتاً ذريعاً» وصف للمتلعب الحقائق .

## المساواة بين الناس من خلال الإسلام :

وفي الإسلام خلة أرواما من أشرف الحلال وأجلها وهي التسوية بين الناس ، وهذا يدل على أصديق النظر ، وأصوب الرأي (١) . فنفوس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض ، والناس في الإسلام سواء .

### الزكاة في الإسلام :

والإسلام لا يكتفى بجعل الصدقة سنة محبوبة ؛ بل يجعلها فرضا حتما على كل مسلم (٢) ؛ وقاعدة من قواعد الإسلام ، ثم يقدسها بالنسبة إلى روة الرجل ، فتكون جزء من أربعين من الثروة (٣) ؛ تعطى إلى الفقراء والمساكين والمكروبين . جميل والله كل هذا ، وما هو إلا صورت الإنسانية - صوت الرحمة والإخاء والمساواة ؛ يصيح من فؤاد ذلك الرجل (٤) - ابن القفار والصحراء .

### الجنة والنار في نظر القرآن :

ويشكر البعض تغلب الحسية المادية على جنة محمد وناره ؛ فأقول إن العيب في ذلك على الشراح والمفسرين لا على ما جاء في الكتاب ، فإن القرآن قد أفقّ جدلاً من إسناد الحسيات والماديات إلى الجنة والنار ، وكل ما فيه من هذا الشأن إيماء وتلميح ، وإنما المغسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ، ولا متعة شهوية حتى الحقوها بالجنة ،

(١) ليس في الإسلام رأى ، إنما هو مستمد من الكتاب والسنة والإجماع والقياس عليها .

(٢) هي فرض على القادر من المسلمين (٣) هذا تعميم غير دقيق ، ولكن للزكاة أحكام حسب نوع المال (٤) بل هو من عند الله .

ولا هذا با بدنيا وألما جسمانيا، حتى أسندوه إلى النار (١)، ثم لا تفسدوا  
 أن القرآن جعل أكبر ملاذ الجنة روحانيا إذ قل : ﴿ وقال لهم خذوها  
 سلام عليكم طيبتم فادخلوها خالدين ﴾ والسلام والآن هما في نظر كل  
 حائل أقصى أمانى المرء وأحظم الملاذ قاطبة ، الشيء الذى عيشنا يتلبسه  
 الإنسان فى الحياة الدنيا ، وقال أيضا ﴿ وزعمنا ما فى صدورهم من غل  
 إخوانا دلى سمر متقاربين ﴾ وأى رذيلة أخبث من الغل مصدر المحن  
 والمصائب والنقم والآفات ، وأى شيء أهنأ من التآلف والتصافى ؟  
الصيام فى الإسلام :

وأى دليل أشهر وبراهة الإسلام من الدليل إلى الملاذ من شهر رمضان  
 الذى تلجم فيه الشهوات ، وتزجر النفس عن غاياتها ، وتقذع عن مأربها  
 وهذا هو مستهى العقل والحزم ، فإن مباشرة اللذات ليس بالمفكر ، وإنما  
 المنكر هو أن تدل النفس لجوار الشهوات ، وتتناقض لحادى الأوطار  
 والرغبات ، ولعل أجمد الحاصل وأشرف المكارم ، هو أن يكون للمرء  
 من نفسه على نفسه سلطان ، وأن يجهل من لذاته لاسلاسل وأغلالا تعيقه  
 وتعتاص عليه ، إذا هم أن يصدعها ، بل حايأوز خارف متى شاء فلاشوء  
 أهون عليه من خلعهما ، ولا أسهل من نزعهما . وكذلك أمر رمضان  
 سواء أكان مقصوداً من عمد (٢) معين ، أو كان وحى الغريزة وإلهاما  
 فطريا ، فهو والله نعم الأمر .

الجنة والنار رمز الحقيقة الأبدية :

ويمكننا القول دلى كل حال بأن الجنة والنار هما رمزى لحقيقة

---

(١) كلامه ليس صحيحاً لأن التفسير أصولاً عند المسلمين لم  
 يطالع عليها (٢) بل هو وحى الله .

أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثلاً صادفت في القرآن ، وماذا ترون تلك الجنة وملاذها وهوائه النار وعذابها ، وقيام الساعة التي يقول عنها : ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ﴾ ماذا ترون كل هذه إلا ظلالاً تمثل في خيال النبي (١) الشاعرة للحقيقة الروحية الكبرى رأس الحقائق أعني الواجب ، وجسامة أمره ، لئذ كان هذا الرجل يرى الحياة أمراً جسيماً ويرى لكل عمل إنساني مهما حق خطاؤه كبرى ، فما كان من سوء فله من السوء نتيجة أبدية ، وما كان صالحاً فله من الصلاح ثمرة سرمدية وأن المرء قد يسمو بهالجاته إلى أعلى عليين ، ويهبط بهولقاته إلى أسفل سافلين ، وإن على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية . كل ذلك كان يلتهم في روح ذلك الرجل الفقير ، كأنما قد نقش ثمت بأحرف النار ، وكل ذلك قد ساول في أشد إخلاص ، وأحد جد ، أن يخرج للناس ويصوره لهم ، فأخرجهم وصوره في صورة تلكم النار والجنة ، وأى ثوب لبسته هذه الحقيقة ، وأى قالب صبغت فيه فلا تزال أولى الحقائق مقدسة في أى أسلوب وأى صورة .

منزلة الإسلام في قلوب المسلمين :

وعلى كل حال فهذا الدين ضرب (١) من النصرانية ، وفيه للمبشرين أشرف معاني الروحانية وأعلامها ، فاعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه ، ولقد مضى هابه ميثاق ألف عام وهو الدين القويم ، والصراط المستقيم لخمس العالم ، وما زال فوق ذلك ديناً يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم (١) ما يقوله المؤلف خطأ وباطل ولا أساس له .



ولا أحسب أن أمة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين  
 بالإسلامهم - إذ يوقنون به كل اليقين ، ويواجهون به الدهر والآبد ،  
 وسينادي الحارس الليلة في شوارع القاهرة أحد المارة ( من السائر ؟ )  
 فيجيبه السائر ( لا إله إلا الله ) . وأن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل  
 لثمن آناء الليل وأطراف النهار ، في أرواح تلك الملايين الكثيفة ،  
 وأن الفقهاء ذوى الغيرة في الله والنفاذ في حبه ، ليأتون شعوب الوثنية  
 في الهند والصين والمالاي ، فيهدمون أضاليلهم ، ويشيدون مكانها  
 قواع الإسلام ، ونعم ما يفعلون .

### تأثير الإسلام على العرب وفضلهم عليه :

ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا  
 به من العرب أمة هامة وأرضاً هامة ، وهل كانت إلا فئة من جنوالة  
 الأعراب ، خاملة فقيرة تجوب الفلاة ، منذ بدء العالم ، لا يسمع لها  
 صوت ولا تحس منها حركة . فأرسل الله لهم نبياً بكلمة من لدنه ورسالة  
 من قبله ، فإذا الخول قد استحال شهرة ، والغمرض نباهة ، والضعفة رفعة ،  
 والضعف قوة ، والشرارة حريقة ، وسبح نوره الانحاء وعم صنوؤه  
 الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والمشرق بالمغرب ، وما هو  
 إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند  
 ورجل في الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقبة عديدة ، ودهوراً  
 مديدة بنور الفضل والنبل ، والمروءة والبأس ، والنجدة . وروثق  
 الحلق والهدى على نصف المعمورة ، وكذلك الإيمان العظيم وهو مبعث

الحياة ومنبع القوة ، وما زال للأمة رقى في درج الفضل ، وتعريج  
إلى ذرى المجد، ما دام مذهبها اليقين ومنهاجها الإيمان ، الستم ترون  
في حالة أولئك الأعراب ومحمد وعصرهم ، كأنما قد وقعت من  
السما شرارة على تلك الرمال، التي كان لا يهتبر بها فضل، ولا يرجى  
فيها خير ، فإذا هي بارود سريع الانفجار ، وما هي برمل بيت ،  
وإذا هي قد تأججت واشتعلت ، واتصلت نارا بين فريطة ودلمى .  
واطالما قلت إن الرجل العظيم كالشهاب من السماء ، وسائر الناس  
في انتظاره كالخطب ، فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا .

[ تم الكتاب ]



الطبعة الثانية  
١٤١٣ هـ ~ ١٩٩٣ م  

---

١٠٠